

السنة السادسة

نظرة جديدة إلى الدعوة

أخذ العرب بعد هزيمة الأحزاب وبعد هزيمة بنى قريظة ينظرون إلى دعوة الإسلام نظرة جديدة، وسرى في نفوسهم أن هذه الدعوة لا بد أن تكون مؤيدة بقوة الله، وأن محمدًا وأصحابه لا بد أن يكونوا على الحق، وأنهم قد تكون لهم الغلبة والنصر في النهاية؛ فأخذت القبائل المعادية تخفف شيئًا من عداوتها، وأخذت القبائل الأخرى تحاول التقرب من المسلمين، وأخذ جو من الرهبة والجلال يملأ نفوس الناس عن الإسلام ورسوله ﷺ، فذهبوا يتحدثون بقوة المسلمين وسلطانهم، ويمقام محمد وقوته ورهبة جانبه.

على أن المسلمين مع ذلك ظلوا أيقاظًا لم يلقوا سلاحهم قط، لأنهم يعلمون أن أعداءهم كثر، وأنهم لا يزالون مُحَنِّقِينَ مَوْتُورِينَ، يملأ نفوسهم الغيظ من هذه الدعوة التي يظهر أمرها يومًا بعد يوم، ومن هذه الطائفة التي يشتد ساعدها شيئًا بعد

شيء؛ فكان على المسلمين أن يظلوا أيقاظًا لكل حركة من حركات أعدائهم، وأن يكونوا دائمًا على أهبة العمل والاستعداد لكل طارئة من الأمر؛ كما كان عليهم أن يُؤكلوا في نفوس الناس أنهم أهل لما أمدهم الله به من نصر، وأن يُشعروا أعداءهم بأنهم قوة قادرة على الإرهاب والغزو، وعلى صد العدو مهما كانت جموعه ومهما كانت قوته، حتى لا يفكر أحد من العرب ولا من اليهود في غزو المدينة أو يؤمل في هزيمة المسلمين بعد ذلك النصر المؤزر، الذي كتبه الله لهم في غزوة الأحزاب وفي غزوة بني قريظة.

إرهاب العدو

من أجل ذلك لم يُلق المسلمون سلاحهم، ولم يستقيموا لأعدائهم، اتكالا على أن الله معهم، وأنه مؤيدهم بحوله وقوته؛ فإن الله لا يكون مع الغافلين أبدًا، ولا يؤيد المتواكلين الذين يرجون منه النصر والتأييد دون أن يأخذوا بأسباب القوة ما استطاعوا. لما كاد رسول الله ﷺ ينتهي من أمر بني قريظة في أواخر السنة الخامسة، حتى بدأ منذ أوائل السنة السادسة يعمل على إرهاب العدو في كل ناحية؛ فأخذ يبعث سرايا ويقود الغزوات في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب، ليرهب

أعداءه من العرب واليهود جميعًا، وليأخذهم على غِرَّة وهم فرادى، قبل أن يأخذوه وهم قوة مجتمعة.

غزوة ضرية

ففي الليلة العاشرة من شهر المحرم من هذه السنة (مايو ٦٢٧)، بعث صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبًا إلى بني بكر بن كلاب، وكانوا ينزلون بناحية «ضرية» على سبع ليالٍ من المدينة في طريق البصرة. فسار إليهم، يكتمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم، فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم فاستاق من أنعامهم مائة وخمسين بعيرًا وثلاثة آلاف شاة، ثم رجع إلى المدينة لليلة بقيت من المحرم، بعد أن غاب عنها تسع عشرة ليلة.

غزوة بني لحيان

وفي مستهل ربيع الأول (يولية ٦٢٧)، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، قاصدًا بني لحيان، وهم الذين غدروا بأصحاب الرجيع: خبيب وأصحابه؛ وكانوا ينزلون واديًا بالحجاز بناحية مكة يسمى «قزآن»؛ فأوهم صلى الله عليه وسلم أنه يريد الشام، حتى لا يعرف بنو لحيان مقصده فيحذروه قبل أن يدرکہم؛ فخرج من المدينة ميمًا نحو الشمال، ثم أمعن في السير

نحو بريد، حتى إذا بُعِدَ مقصدُه عن الظنون عرَّجَ على يساره حتى استقام على طريق مكة، ثم انحدر إلى ناحية الجنوب سرعًا إلى فزان. لكن بنى لحيان كانوا من الحذر والخوف بحيث كانوا يراقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلاحظونه ملاحظة شديدة؛ فما كاد يصل إلى مصرع أصحاب الرجيع حتى أدرك بنو لحيان أنه يريدهم، فهربوا في رهوس الجبال؛ وذهب - صلى الله عليه وسلم - إلى منازلهم فلم يجد بها أحدًا؛ فأقام هناك يومًا أو يومين، وبعث سراياه في كل ناحية فلم يعثروا على أحد، فاعتزم الرجوع إلى المدينة، ولكنه قبل أن يعود إليها بعث نفرًا من أصحابه تحت إمرة أبي بكر إلى ناحية مكة، ليُرهب قريشًا ويعلمها بمسيرهم، فذهبوا حتى وصلوا إلى «كُرَاعِ الغَمِيمِ» - على مرحلتين من مكة - ثم عادوا. وغاب رسول الله ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة، ثم رجع إليها في يوم شديد القيظ، فكان يقول: «آيئون تائبون، لرينا حامدون. أعوذ بالله من وَعَثَاءِ السفر، وكآبةِ التَّنْقَلبِ وسوءِ المنظرِ في الأهلِ والمال!»

مخزوة ذي قرد

وبعد ليالٍ من رجوعه، صلى الله عليه وسلم؛ إلى المدينة

(١) البريد: فرسخان، أو اثنا عشر ميلا، أو نحو تسعة كيلو مترات.

خرج في نحو خمسمائة من أصحابه إلى «ذى قرد» - وهو ماء على نحو يوم من المدينة، بينها وبين خيبر - ليرد غارة لعينة ابن حصن على سرح^(١) المدينة بناحية «الغابة». وكانت بها إبل لرسول الله ﷺ ترعى بن أشجارها، فأغار عليها عينة ذات ليلة في رجال من غطفان، فقتلوا راعي الإبل، واحتطفوا امرأة كانت معه، وذهبوا بالمرأة وبالإبل إلى ديارهم، فعلم بأمرهم سلمة ابن الأكوع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصعد في جبل سلع وجعل يصرخ ويستغيث، حتى بلغ صراخه أهل المدينة. فنودي في المسلمين «يا خيل الله اركبي»! فسارع الرجال يستبقون إلى تلبية النداء؛ فأمر رسول الله ﷺ المقداد بن الأسود على من بادر إليه من الرجال، وقال له «اخرج في طلب القوم حتى الحقك في الناس». فجدوا في أثر القوم حتى أدركوا أخرياتهم فقتلوا منهم ثلاثة رجال، واستنقذوا عشر لقاح^(٢) وأفلت القوم بعشر. وغدا رسول الله ﷺ في نحو خمسمائة فلحق أصحابه، وتلاحق به الناس حتى اجتمعوا بذى قرد؛ ولكن القوم فاتوهم ولحقوا بمنازل غطفان، فلم ير صلى الله عليه وسلم أن يتابعهم، وأقام على ذلك الماء يوماً وليلة، ثم رجع إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمس ليال.

(١) السرح: الماشية التي ترح في المرعى.

(٢) اللقاح: النوق الحوامل.

شجاعة سلمة بن الأكوع

وقد أبدى سلمة بن الأكوع من ضروب الشجاعة والإقدام في هذه الغزوة، ما جعل رسول الله ﷺ يثنى عليه بقوله: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالاتنا اليوم سلمة!» ويعطيه سهم الراجل والفارس جميعاً. يقول سلمة - فيما رواه البخاري ومسلم عن يزيد بن أبي عبيد - : «خرجت قبل أن يؤذن بالأولى^(١)، وكانت لِقاح رسول الله ترعى بذى قرد؛ (قال) : فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، فقال: أخذت لِقاح رسول الله، صلى الله عليه وسلم! فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان. (قال): فصرخت ثلاث صرخات: «يا صباحاه!» (قال): فأسمعت ما بين لابتي المدينة^(٢)، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم بذى قرد، وقد أخذوا يستقون من الماء، فجعلت أرميهم ببلي - وكنت رامياً - وأقول:

أنا، أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع^(٣)
وأرتجز، حتى استنقذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين

(١) يعني قبل صلاة الفجر.

(٢) لابتي: ناحيتيها.

(٣) الرضع: اللثام. واليوم يومهم: أي يوم هلاكهم.

بُرْدَة. (قال): وجاء النبي، صلى الله عليه وسلم، في الناس، فقلت: يانبي الله إني قد حَمَيْتُ القوم الماء وهم عطاش؛ فابعث إليهم الساعة. فقال: «يا ابن الأكوح، مَلَكْتَ فاسْجِحْ»^(١). (قال): ثم رجعنا ويُرَدِّفُنِي رسول الله ﷺ على ناقته، حتى دخلنا المدينة.»

أما المرأة فقد استطاعت أن تتغفل القوم وتقلبت من إسارهم، ثم نجت بنفسها على ناقة لرسول الله ﷺ مما أخذه القوم، لما شعر المسلمون إلا وهي تدخل عليهم المدينة. فلما قدمت على النبي، صلى الله عليه وسلم، قصت عليه خبرها، ثم قالت: يا رسول الله، إني نذرت لله تعالى أن أنحرها إن نجاني الله عليها. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال: «بِسْمًا جَزَيْتَهَا - أَنْ حَمَلَكَ اللهُ عَلَيْهَا وَنَجَّاكَ - أَنْ تَنْحَرِيهَا..!» إنه لانذر لأحد في معصية الله، ولا لأحد فيما لا يملك. إنما هي ناقة من إبلي.. ارجعي إلى أهلِكَ على بركة الله!»

وفي ربيع الأول - أيضاً - بعث رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن في أربعين راكباً إلى «الغمر» - وهو ماء لبني أسد على

(١) اسجح: أي أحسن، والتعبير في معنى أخذ الأمور بالرفق، لا بالشدّة والعنف.

طريق نجد - فخرج سريعًا ليأخذ القوم على غرة، ولكنهم نذروا به فهربوا؛ فجعل يسأل عن أخبارهم حتى وقع على أنعام لهم، فاستاقها - وكانت مائة بعير - ثم رجع إلى المدينة ولم يَلْقَ كيدًا.

سرية ذى القصة

وفي ربيع الآخر من هذه السنة (أغسطس ٦٢٧)، بعث رسول الله ﷺ محمد بن مَسْلَمَةَ في عشرة رجال إلى بنى نعلبة «بذى القصة» - وهو مكان على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة من ناحية الحجاز - فكن لهم المشركون في مائة من رجالهم، وتربصوا بهم حتى ناموا، ثم انقضوا عليهم فقتلوهم جميعاً؛ إلا محمد بن مسلمة، فقد وقع جريحاً حتى ظنوا أنه مات، فتركوه ثم به رجل من المسلمين فحمله إلى المدينة.. وعلم صلى الله عليه وسلم بما كان، فأرسل أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً؛ فلما وصلوا إلى منازل القوم لم يجدوا بها إلا بعض النسوة والنعم وبعض المتاع الرث، فرجعوا بما وجدوا من ذلك ولم يصلوا إلى القوم.

سرية الجموم

وفي ربيع الآخر - أيضاً - بعث رسول الله ﷺ زيد بن

حارثة في نفر من المسلمين إلى بنى سُليم «بالجموم» - على أربعة أميال من المدينة إلى ناحية البصرة - فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا، ووجدوا هناك امرأة من مُزينة فأخذوها، فدلّتهم على بعض منازل بنى سليم، فأصابوا هناك نَعْمًا وشاء، ووجدوا بعض رجالهم فأسروهم، وكان في هؤلاء الرجال زوجُ تلك المرأة؛ فلما رجع زيد بما أصاب من القوم، وهب رسول الله ﷺ للمرأة نفسها وزوجها.

سرية العيص

وفي جمادى الأولى من هذه السنة (سبتمبر ٦٢٧) بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب إلى «العيص» - على أربع ليالٍ من المدينة - ليعترض عيرًا لقريش بلغه أنها قادمة من الشام، فأدركها زيد فأخذها، وفيها يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية؛ وأسروا فيمن أسروا من الرجال يومئذ أبا العاص بن الربيع، زوج زينب بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما قدموا المدينة استجار أبو العاص بزينب، فأجارته، ونادت في الناس حين صلى رسول الله الفجر: «إن قد أجزت أبا العاص»! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعتم؟» قالوا: نعم. قال:

«والذى نفس محمد بيده ما علمت بشيء من هذا حتى سمعت ما سمعت.. المؤمنون يد واحدة، يجير عليهم أدناهم»^(١). وقد أجزنا من أجزارت..»

ثم دخل منزله؛ فدخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه. فقال - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا؛ فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فى الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به» فقالوا: يارسول الله، بل نرده. فجعلوا يردون ما أخذوا، حتى إن الرجل ليأتى بالدُّلو، والرجل يأتى بالإداوة، حتى ردوا عليه كل ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً.

إسلام أبى العاص

فذهب أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال ماله، ثم قال: «هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟» قالوا: «لا»، قال: «هل أوفيت ذمتي..؟» قالوا: نعم، وجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً». قال: «فإن أشهد أن لا إله

(١) يتكلم بلسانهم أى واحد منهم، فيحترم الجميع كلمته ويعضون عنده.

إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله...! والله ما منعني من الإسلام عنده: إلا تخوُّف أن تظنوا أني إنما أردت أن أكل أموالكم؛ فلما ردها الله عليكم وفرغت منها أسلمت... ثم خرج فقدم المدينة مسلمًا، فرد رسول الله ﷺ عليه زوجته.

سرية الطرف

وفي جمادى الآخرة من هذه السنة (أكتوبر ٦٢٧)، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى بني ثعلبة بناحية الطرف - وهو ماء بطريق العراق على ستة وثلاثين ميلا من المدينة - فخرج في خمسة عشر رجلا؛ فأصاب عشرين بعيرا، وهربت الأعراب فلم يعثر منهم على أحد. وصيَّح زيد المدينة بالنعم، بعد أن غاب عنها أربع ليال.

سرية وادى القرى

وفي رجب من هذه السنة، بعث رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة إلى «وادى القرى»، ليقتنص من بني فزارة؛ وكانوا قد تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام، فسلبوا ما كان معه وكادوا يقتلونه. فلما جاء المدينة وأخبر رسول الله ﷺ

بما كان منهم، أرسله إليهم في نفر من أصحابه؛ فساروا إليهم حتى دهمهم في منازلهم فأحاطوا بهم وقتلوا منهم جمعًا كثيرًا.

سرية دومة الجندل

وفي شعبان (نوفمبر ٦٢٧)، أرسل عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة من أصحابه، إلى بني كلب «بدومة الجندل» - وهي قَرْى في أطراف الشام، بينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة - وقال لهم: «اغزوا جميعًا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله؛ لا تَغْلُوا، ولا تَغْدِرُوا، ولا تَمْتَلُوا، ولا تَقْتُلُوا وليدًا». فسار إليهم عبد الرحمن في أصحابه؛ فجعل يعرض الإسلام عليهم ثلاثة أيام. وأسلم الأصبغ بن عمرو - وهو شيخهم وكان نصرانيًا - فأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام بقيتهم على دينهم على أن يدفعوا الجزية؛ فصالحهم عبد الرحمن على ذلك، وتزوج ابنة الأصبغ وقدم بها المدينة، فهي أم ولده سَلْمَة ابن عبد الرحمن.

سرية الهمج

وفي شعبان - أيضًا - بعث رسول الله ﷺ على بن أبي

طالب في مائة رجل، إلى بنى سعد بن بكر «بفدك» - وهى قرية على يومين أو ثلاثة من المدينة بينها وبين خيبر - وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بلغه أنهم يريدون أن يعاونوا يهود خيبر على غزو المدينة، وكان يهود خيبر يجمعون لذلك؛ فسار على إليهم بمن معه من الرجال، حتى انتهوا إلى ماء يسمى «الهمج» بين خيبر وفدك، فوجدوا به رجلا من القوم فأمنوا على نفسه حتى دهم على مكانهم. فلما أحس القوم بهم هربوا؛ فأخذ المسلمون من أنعامهم خمسمائة بعير وألفى شاة، فقدموا بها المدينة دون أن يلقوا كيذا.

مقتل أبي رافع

وفي رمضان (ديسمبر ٦٢٧)، بعث رسول الله ﷺ عبد الله ابن أبي عتيك في أربعة من رجال الخزرج إلى خيبر، لقتل زعيم من زعمائهم، هو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق. وكان أبو رافع من زعماء بنى النضير الذين ذهبوا إلى خيبر بعد جلائهم عن المدينة، فدانت لهم خيبر بالرياسة؛ وكان تاجراً كثير المال واسع التجارة، حتى كان يلقب بتاجر الحجاز؛ وكان ممن حزّب الأحزاب على رسول الله ﷺ في غزوة الخندق، وأعان المشركين فيها بالمال الكثير فلما انتهت بهزيمة الأحزاب وتقتيل بنى قريظة،

أخذ يحزب الأحزاب من جديد، ليثار لبني قريظة؛ فأجلب^(١) في غطفان وفيمن حوله من مشركي العرب، وجعل لهم الجعفل العظيم لحرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

فبعث إليه رسول الله ﷺ هؤلاء النفر الخمسة من رجال الخزرج ليقتلوه؛ ونهاهم أن يقتلوا وليدًا أو امرأة، فخرجوا حتى قدموا خيبر، فكمنوا حتى هدأت الرجل وسكنت الحركة، ثم جاءوا إلى منزله فقدموا بين أيديهم عبد الله بن أبي عتيك لأنه كان يرطن باليهودية؛ فاستفتح الباب وقال: جئت أبا رافع بهدية فتحت له امرأته. فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح، فأشاروا إليها بالسيوف فسكتت، فدخلوا عليه فَعَلَوْهُ بِأَسْيَافِهِمْ وجعلوا يضربونه؛ واتفكا عبد الله بن أنيس بسيفه على بطنه حتى بلغ الفراش وهلك، ثم نزلوا؛ فصاحت امرأته فتصايح أهل الدار.

وكان عبد الله بن أبي عتيك رجلا سقى البصر، فوقع من السلم، فوثقت يده وثقًا^(٢) شديدًا - ويقال: رجله - فحملوه حتى أتوا منبرًا^(٣) من عيونهم فدخلوه، وخرج القوم في آثارهم

(١) أجلب في القوم: سعى فيهم ليجلبهم إلى جنته في الحرب ونحوها.

(٢) الوثء: صدع يصيب اللحم ولا يبلغ العظم، وقيل هو وجع في العظم من غير

كسر.

(٣) المنبر: فضاء يكون بين البيوت تلقى فيه الكفاة.

يطلبونهم على ضوء النيران فلم يروههم؛ فكثروا في مكانهم يومين حتى سكن عنهم الطلب. (قالوا): فاحتملنا صاحبنا وقدمنا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخبرناه بقتل عدو الله، واختلفنا عنده في قتله، كلنا يدّعيه. فقال: «هاتوا أسيافكم» فجثنا بها، فنظر إليها. فقال لسيف عبد الله بن أنيس: «هذا قتله؛ أرى فيه أثر الطعام».

الدفاع الهجومى

وهكذا مضت السنة السادسة أو أكثرها في مثل هذه المناوشات؛ وكان العامل البارز فيها من الناحية الحربية هو عامل المفاجأة، وأخذ الطريق على العدو قبل أن يأخذ أهبتة ويستجمع قوته. على أن الهدف فيها جميعاً لم يكن هو المبادأة بالعدوان، فإن العدوان مبدأ لا يُقرّه الإسلام ولا يرتضيه؛ إنما كان الهدف هو الدفاع الهجومى أو الهجوم الدفاعى لا غير: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتلوا إن الله لا يحب المعتدين»^(١). فكل ما كان من هذه المناوشات إنما كان ردّاً لعدوان بادى به عدو، أو إرهاباً لعدو يريد أن يعتدى. ولقد أدت هذه المناوشات أغراضها على أتم وجه؛ فإنه ما كادت

^١ (١) سورة البقرة الآية ١٩٠.

السنة السادسة تنتهى، حتى كانت هيبة المسلمين قد استقرت في نفوس القبائل العربية فيما حول المدينة وفيما وراءها، وأخذ الجو يتهدأ لحياة استقرار وسلم بين المسلمين وجيرانهم، وصار من الممكن أن تقوم علاقة الجوار فيما بينهم على تناسى التارات ودفن الحزازات، وعلى التعاون والتلاقى في سبيل الخير في طمأنينة وأمن..